

الدرس الثالث عشر تاريخ التشريع الإسلامي

❖ إذا ما صادف الإنسان مشكلة فإنه يتمهل وينظر ويفكر ثم يراجع ما حوله ثم يرتب ما وجد وبعد ذلك يقرر، هذا بالنسبة للقوانين الوضعية فكيف الأمر بالنسبة وللنصوص والقوانين الإلهية علينا التمهّل ثم التمهّل قبل أن نعطي تفسيراً من عقلنا أو إبداعنا.

ملاحظة: لا خلاف بين الأئمة في مسألة تحريم حمل المصحف بالنسبة للرجل غير المتوضأ المحدث حدثاً أكبر أو أصغر.

ومن الخيانة الكبرى للعلم والدين أن يسأل الإنسان عن أم ما فيقول برأيه ويتجاهل أقوال الأئمة الأربعة بل وأقوال الصحابة والتابعين.

إن العوام إن رأوا رجلاً ذا لحية كبيرة وجبهة عريضة سألوه والأشنع أن يسأل رجل عن ها الموضوع فيقول إذا أحدث الرجل هل يشتغل بما يلهيه أم بالقرآن أيهما أفضل تضييع وقتك أم تقرأ القرآن لا القرآن إذاً تجوز.

❖ كان الإمام مالك إذا سأل عن أمر ما يقول انتظر لغد أو لبعده غد ثم يجيبه أو يقول له لا أعلم وقال (ليتصور أحدكم الجنة والنار وموقفه من الله عز وجل غداً ومصيره يوم القيامة ثم لينظر أيسرع بالإجابة عندما يفتي)، وكان الرجل يقول له أريد السؤال عن مسألة خفيفة فيقول له: مسألة خفيفة! هل يوجد في الدين مسألة خفيفة؟ والله تعالى يقول { إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً } وتسألني عن دين الله وتقول مسألة خفيفة.

❖ أما موقف الإمام مالك من الفتن مثل موقف الحسن البصري وسعيد بن المسيب المنكران لها المبتعدان عن الغلوط فيها والداعين لذلك ويقينه وتصوره مثلها وهو أن الحق مع سيدنا علي ولكن هذا اليقين لم يدفعه ليكون مع أحد

الطرفين بل يعمل بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث التي بلغت بمجموعها مبلغ التواتر أنه كان يوصي أصحابه وإخوانه الذين يدركون الفتن أن يلتزموا بيوثهم وخاصة أنفسهم وأن يضرب الواحد على سيف **بجمر يكسر حده** وقد صح أن الحسن كان ينهى عن الدعاء على أمثال الحجاج وغيره ومد اللسان **بقالة** السوء بحقهم، ولو فتحت صدور هؤلاء الأئمة لرأيت الإنكار لأعمالهم ولكنه يخشى الفتن وقد رأى رجلاً يسب الحجاج فقال له لا تفعل يرحمك الله إنكم من أنفسكم أوتيتم إننا نخاف إن ذهب الحجاج أن يليكم القردة والحنازير ثم روى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم [عمالكم أعمالكم كما تكونوا يولى عليكم].

❖ أما شان الإمام مالك مع الخلفاء فالنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون نفاق أو رياء، محترماً نفسه في مجالس السلطان، فقد كان رحمه الله ذو هيبة محافظاً على عزة نفسه في هذه المجالس، عكس ما يكونون عليه في المساجد فقد كان إذا دخل يقف عند آخر صف يصل إليه لا يتجاوزه أبداً، ولكن إذا غشي مجالس الولاية والخلفاء فرض عزته على المجلس كله.

فقد دخل المهدي إلى المدينة المنورة مرة فذهب إليه العلماء والشيوخ يزورونه وذهب الإمام مالك فرأى المجلس مزدحم فنظر الجميع أين سيجلس الإمام، فقال يا أمير المؤمنين أين سيجلس شيخك فتضام المهدي وصغر م جلسته وقال ها هنا يا عبد الله إلى جانبي.

هذا التصرف ليس كيد بل تصرف إنسان أمين على شرع الله ودينه أن يهان شخصه وفرق كبير بين إنسان يتكبر على عباد الله عز وجل وبين إنسان أوتي مظهر الشريعة وشعار هذا الدين فكان أمين على هذا الشعار ألا يذل في مظهره وشخصه فقد كانت سمة الإمام مالك سمة الدين والشرع وهذه السمة يجب أن

تكون مهيمنة على شخصه عزيزة في كل مكان ودليل ذلك هيئته وهو في المسجد.

والله عز وجل بقدر ما أمرنا أن نبتعد عن الكبر أمرنا أن نعتز بالإسلام
وبقدر ما أمرنا بالتواضع نهانا عن الذل للناس.

❖ بالنسبة لعلمه أجمع العلماء أنه بلغ الذروة في السنة والحديث والذروة في
الفقه وأجمعوا أنه إمام في كل منهما ونال من الثناء ما لم ينله أحد في عصره.

- يقول الإمام أبو يوسف: ما رأيت اعلم من ثلاثة: الإمام مالك وعبد
الرحمن بن أبي ليلى وأبو حنيفة.

- سفيان بن عيينة: كان لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً ولا يحدث إلا
عن ثقة الناس وما أرى المدينة إلا استخرب بعد موته.

- يقول الإمام الشافعي: إذا جاءك الأثر عن الإمام مالك فاشدد به وإذا
ذكر العلماء فمالك النجم فيهم.

- الإمام أحمد: مالك سيد من سادات أهل العلم وهو إمام في الحديث
والفقه ومن مثل مالك متبع الآثار مع عقل وأدب.

❖ أما ورعه: فأمثلة عن ذلك قوله أمهلي لأهمية قول الله وعظمته، إنك
إن فسرت قول رجلاً ما تفسيراً خطأ لربما رفع عليك قضية يقاضيك على هذا

الخطأ فكيف بمن يفسر كلام الله عز وجل اعتماداً على عقله وخياله، ومثل ذلك
من يفسر قول الله تعالى: { يهدي من يشاء ويضل من يشاء } إن ضمير يشاء

عائد إلى الناس لا إلى الله تعالى ليضع الذين يفسرون كلام الله عز وجل على
مزاجهم أن الحساب آتي فليتمهلوا في التفسير، وسيدنا أبو بكر وعمر يقولان: (

أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله بما لا أعلم) وسئل
سيدنا عمر عن معنى { أبأ } فلم يجب، أما نحن فنقول سنأتيكم بتأويله

ويتحول المجلس إلى حلبة مصارعة كلاً منهم يبرز عضلاته الفكرية، هذا نفعه في

شعر امرأ القيس لا في كتاب الله. [إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم].

❖ منهج الإمام مالك: هو مثل الإمام أبو حنيفة لم يؤلف منهجاً أصولياً في استنباط الأحكام أو وضع القواعد الاجتهادية بل أخذت هذه القواعد من الكتب والعبارات التي كتبها في مؤلفاته مثل الموطأ، فتراه بالحديث المرسل ويعتمد في الفتوى على عمل أهل المدينة ويقول إن عمل أهل المدينة في هذه على كذا وهو يعتبر عمل أهل المدينة في عصره **والقرنين** الذي قبله بمثابة الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لماذا؟

الجواب: إنه يقول إن أهل المدينة ورثوا هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا وجدنا علماء المدينة يفتون في أمر ما ولا يختلفون فيه فهذا يعني أن هذا الأمر منقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يعيش بين ظهرانيهم حتى وإن لم نجد نصاً فعمل أهل المدينة عند الإمام مالك مثل خبر الأحاد بل أقوى منه إن لم يستطع الجمع بينهم وأيضاً كان يأخذ بالمصالح المرسلة وهذا ما سنعرفه عن دراسة منهجه الأصولي.